مختصر خطبة صلاة الجمعة 2025/8/1 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الاشتغال بالنافعات)

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]

أخرج الإمام الترمذي عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تزولُ قدَمَا عبد يومَ القيامة، حتى يُسألَ عن أربع: عن عُمُره فيما أفناه؟ وعن عِلْمِهِ ما عمِل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟**».

أيها الإخوة: تفكّرتُ في مقاصد الشريعة الكبرى فإذا هي أربعة: تحقيق العبودية لله تعالى، وعمارة الأرض، وتحقيق العدالة والمساواة، ونشر التآخي والتعاون والتحابب بين الناس.

ومرجع هذه المقاصد إلى الاشتغال بالنافعات، فهي مقاصد جليلة عظيمة تحتاج إلى عمل دؤوب وبذل الأعمار لتحقيقها، فهل يجد المسلم بعدها وقتاً ليقتله بالقيل والقال وبكثرة الجدال، أم أنه يجتهد في الاشتغال بالنافعات!

قرأتُ في أوّليات عمر ﷺ أنه أول من كتب التاريخ من الهجرة، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من عَسَّ بالليل، وأول من اتخذ الديوان، وأول من فتح الفتوح ومسح السواد، وأول من حمل الطعام من مصر في البحر الأحمر إلى المدينة، وهو أول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من عرف العُرفاء، وأول من وسَّع مسجد رسول الله ﷺ، وأول من فرض الأعطِيَةَ والأرزاق، وأول من ضرب النقود، وأول من مصّر الأمصار: الكوفةَ، والبصرةَ، والجزيرةَ، والشامَ، ومصرَ، والموصلَ.

ترى هل كان عمر ﷺ يجد وقتاً ليقتله بكثرة الكلام وطول المنام واللهو الحرام، أم أنه كان يجتهد في الاشتغال بالنافعات؟

نزلت سورة الانشراح (ألم نشرح لك صدرك) على النبي ﷺ في مكة، في زمن الشدة والقلّة والضيق.

مطلع السورة حديث عن الانشراح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وخاتمتها حديث عن العمل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾، بل إنه حديث عن الاجتهاد في العمل والتعب فيه.

قال المفسرون: (هذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، وإن الله يكره العبد البطّال).

وكأنّ سورة الشرح تربط بين العمل الصالح والعلم النافع وانشراح الصدر، وبين كثرة الفراغ وضيق الصدر.

فكلّما اتّسع وقت الفراغ ضاق الصدر، وكلما ضاق وقت الفراغ اتّسع الصدر وانشرح.

أيها الإخوة: الشام أحوج ما تكون اليوم إلى البناء والتعمير لا الجدال والتشهير، إلى العمل النافع لا الوقت الضائع، إلى تحسين الواقع المعاشي لا إلى تجميل الواقع الافتراضي، إلى رجال تبني لا إلى رجال تحكي.

ولن يتحقق هذا إلا باشتغال عامة الناس وخاصتهم بالنافعات.

فالطالب حين يجتهد بدراسته، والعامل حين يُتقن عمله، والزارع حين يرعى زرعه، والمعلّم حين يعتني بطلبته، والتاجر حين يصدق بتجارته، والصانع حين يمهر بصناعته، والحِرفيّ حين يتقن حرفته، والموظف حين يخدم مراجعه، والعسكري حين يذود عن وطنه، والطبيب حين يُشفِق على مريضه، والوالد حين يربي ولده، والابن حين يَبَرّ والده، والمسؤول حين يخدم رعيته، والرعية حين تعين على الخير وَلِيّها... كل أولئك يشتغلون بالنافعات.

أما إذا تحوّل الشاب إلى "يوتيوبر" للمقالب والإضحاك، وتحولت الفتاة إلى مستهلكة لمساحيق التجميل ومضيّعة للأوقات، وتحوّل الرجال إلى مراقبين منتقدين للعاملين والمنتجين، وتحولت النساء إلى ناقدات سلبيات للساسة والمصلحين، فاعلم بأن القوم لم يشتغلوا بالنافعات.

وقد جاء في الأثر عن معروف الكرخي –رحمه الله– قال: (إذا أراد الله بعبدٍ شَرًّا، أغلق عنه بابَ العمل، وفتح عليه بابَ الجدَل).

أيها الإخوة: الاشتغال بالنافعات ديدنُ المسلم، خاصَّةً وأنّ العمر قصير وأنّ السفر بعيد وأنّ العقبة كؤود.

قال الحسن البصري –رحمه الله–: (يَتَوَسَّدُ الْمُؤْمِنُ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ فِي قَبْرِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَاغْتَنِمُوا الْمُبَادَرَةَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ).

والحمد لله رب العالمين